(١٨) وجوب محاسبة النفس

الخُطْبَةُ الأُولَىٰ :

إِنَّ الحَمْدَ للهِ،نَحْمدُهُ وَنَسْتَعِيْنُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ،وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُور أَنْفُسنَا وَمِنْ سَيِّئَات أَعْمَالنَا،مَنْ يَهْده اللهُ فَلَا مُضلَّ لَهُ،وَمَنْ يُضْلِل فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ،وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[آل عِمْرَان: ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [النِّسَاء:١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾[الأَحْزَاب:٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيث كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ .

أيها المؤمنون : يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (الحشر : ١٨).

قال الإمام الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم(١).

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢) : وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾.

والأمر بالنظر لعموم كل نفس كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ (آل عمران : ٣٠).

وقال جلت عظمته: ﴿ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ عامة في الخير والشر كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا ﴾ .

وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعد ي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣): وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها.

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ (الحشر: ١٨)، وفي القليل والكثير كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨ ﴾(الزلزلة: ٧-٨).

---

(١) تفسير ابن كثير ج٧(٢٣٥).
(٢) إغاثة اللـهفان ج٤(١٣٨) .
(٣) تيسير الكريم الرحمن للعلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ج٥(٢٠٨).

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾(البقرة: ٢٨١).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ (الزمر: ٧٠).

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: فإذا كان العبد مسئولا ومحاسبا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ (الإسراء: ٣٦) فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

وفي الزهد للإمام أحمد بسند صحيح[٢]:قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر** ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴾ (الحاقة: ١٨).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت عمر بن الخطاب، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يومًا وخرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط: «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ والله لتتقين الله، ابن الخطاب أو ليعذبنك». [٣]

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في هذه الآية ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة: ٢) إن المؤمن -والله-ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قدمًا ما

(١) إغاثة اللهفان ج١(١٣٨).
(٢) الزهد للإمام أحمد (١٤٩).
(٣) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص(٢٣)

يعاتب نفسه[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر.

أيها المؤمنون: الواجب على كل عبد أن يحاسب نفسه وأن يهتم بطهارتها، وأن يحرص غاية الحرص على تهذيبها والعناية بتزكيتها، فقد بعث الله نبينا صلوات الله وتسليماته عليه وعلى آله لتزكية النفوس، قال عز شأنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

فمن زكى نفسه وطهرها من الشوائب والأدناس فقد نال الفلاح والنجاح، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (الشمس: ٧-١٠).

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

وقال الإمام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم. فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ (النازعات: ٣٧-٤١).

(١) تفسير ابن كثير ج٧(٤٣١).
(٢) إغاثة اللهفان ج١(١٢٥).

ولقد أخبرنا ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، عن خطورة هذه النفس ودسائسها ، وما فيها من الشر والبلاء ، فقال إخبارًا عن موسى الكليم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾ (طه: ٩٥ - ٩٦).

وقال تعالى عن امرأة العزيز: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (يوسف : ٥٣).

وتأمل - أيها المسلم - قوله تعالى: ﴿ لَأَمَّارَةٌۢ ﴾ ولم يقل آمرة وإنما قال لأمارة صيغة مبالغة:أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى ﴾ فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده[1].

وما أحسن ما قاله ابن القيم العالم الرباني تغمده الله بغفرانه[2] احذر نفسك فما أصابك بلاء قط إلا منها ولا تهادنها فوالله ما أكرمها من لم يهنها ولا أعزها من لم يذلها ولا جبرها من لم يكسرها ولا أراحها من لم يتعبها ولا أمنها من لم يخوفها ولا فرحها من لم يحزنها.

وانظر- يا أخا الإيمان- ما جرى للصحبة من الهزيمة في يوم أحد بسبب المعصية والمخالفة الواحدة التي صدرت من البعض فقط ، وهذه المعصية ما هي إلا بسبب هذه النفس كما قال المولى عَزَّوَجَلَّ : ﴿ أَوَلَمَّآ

(١) تيسير الكريم الرحمن ج٢(٤٦٦) .
(٢) فوائد الفوائد بترتيب الشيخ علي الحلبي ص(٤٣٧) .

أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (آل عمران : ١٦٥).

فهذه النفس تحسن وتزين لصاحبها المعاصي ، ثم بعد ذلك تلومه على فعل ذلك كما قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ (القيامة : ١-٢).

فالنفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها على الخير والشر.

وأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق ، فيقال لها: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠ ﴾ (الفجر : ٢٧ -٣٠).

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] : فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه فهي مطمئنة وهي التي يقال لها عند الوفاة ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠ ﴾ (الفجر : ٢٧ -٣٠).

معاشر المسلمين : إن صلاح القلوب بمحاسبة النفوس ، وإن فساد القلوب بإهمال النفوس والاسترسال معها في شهواتها وشرورها.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] : في النفس كبر إبليس وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود وجرأة نمرود واستطالة فرعون وبغي قارون وقحة[3] هامان وهوى بلعام وحيل أصحاب السبت وتمرد لوليد وجهل أبي جهل وفيها من أخلاق البهائم حرص الغراب وشره الكلب ورعونة الطاووس

(١) إغاثة اللهفان ج١(١٢٦) .
(٢) فوائد الفوائد بترتيب الشيخ علي الحلبي ص(٤٦٣- ٤٦٤) .
(٣) قحة هامان: أي وقاحته.

ودناءة الجعل وعقوق الضب وحقد الجمل ووثوب الفهد وصولة الأسد وفسق الفأرة وخبث الحية وعبث القرد وجمع النملة ومكر الثعلب وخفة الفراش ونوم الضبع غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك.

وقال بعض السلف : من لم يتهم نفسه بالتقصير على مدى الأيام أصابه الغرور.

أخي إياك أن تكون من أولئك المغرورين بأنفسهم ، الرافعين لها إلى أعلى درجات الكمال من أجل قليل من أعمال صالحة عملوها ، فمن أحسن الظن بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه ، تالله لقد كان السلف يمقتون أنفسهم في ذات الله .

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ [١]: ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نفسي مرة علي ومرة لي.

وقال محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليّ .

وقال يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي واحدة منها.

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل[٢]

فالنفس داعية إلى المهالك ، معينة لأعداء طامحة إلى كل قبيح ، متبعة لكل سوء ، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة ، وأعرف الناس بها أشدهم لها إذلالًا ومقتًا.

وقال بعض السلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لو يعلم الناس بعض ما نحن عليه ما ذل

(١) سير أعلام النبلاء ج٧(٢٥٨).
(٢) إغاثة اللهفان ج١(١٣٩) وما بعدها.

لنا لسنان بذكر خير أبدًا.

وقال ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1]: لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه ، ويعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه.

ولما كانت النفس خطيرة على الإنسان دعي إلى بيعها ، فالمسلم يبيعها لله عَزَّوَجَلَّ بأغلى الأثمان.

ورَحِمَهُ ٱللَّهُ من قال :

أثامن بالنفس النفيسة ربها ... وليس لها في الخلق كلهم ثمن

بها تشترى الجنات إن أنا بعتها ... بشيء سواها إن ذلكم غَبن

لئن ذهبت نفسي بدنيا أصبتها ... لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ١١١)

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (البقرة : ٢٠٧).

بعنا النفوس فلا خيار ببيعنا ... أعظم بقوم بايعوا الغفارا

رب اعطنا ثمنًا ألذ من المنى ... جنات عدن تتحف الأبرارا

(١) سير أعلام النبلاء ج٥(٧٤) .

يا عباد الله : من حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه ، ومن لم يحاسبه نفسه دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته[1].

إنا لنفــرحُ بالأيـــام نقطـــعها وكل يوم مضى يدني من الأجلِ
فاعمل لنفسك قبل الموتِ مجتهدًا فإنما الربح والخـسران في العملِ

قال الله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (المائدة : ٣٠).

(١) صلاح الأمة للعفاني ج٤(٥٣٣).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَة :

الحمد لله ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والعاقبة للمتقين، أحمده تعالى وأشكره وأسأله المزيد من فضله ، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن محاسبة النفوس من الطاعات العظيمة والأعمال الجليلة لكن مما يؤسف له أننا نهتم بالظاهر وندع الباطن إلا ما رحم ربي.

وصدق من قال:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

معاشر المسلمين : لقد سمعتم إلى الآيات وأقوال السلف في محاسبة النفس ، وما في هذه النفس من الشر والبلاء .

والآن نذكر لكم بإذن الله -جل وعلا- طائفة مباركة من الأحاديث النبوية التي تدل على وجوب محاسبة النفس وكثرة شرها:

فعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله** عَزَّوَجَلَّ » [1].

والله عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه الكريم : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت : ٦٩).

---

(١) أحمد برقم (٢٣٩٥٨) والترمذي برقم (١٦٢١) .

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [١] فمن كانت نفسه شريفة، وهمته عالية لم يرض لها بالمعاصي، فإنها خيانة ، ولا يرضى بالخيانة إلا من لا نفس له.

قال بعض السلف: رأيت المعاصي نذالة، فتركتها مروءة فاستحالت ديانة.

وقال آخر منهم: تركت الذنوب حياءً أربعين سَنة، ثم أدركني الورع.

وقال آخر: من عمل في السر عملًا يستحيي منه إذا ظهر عليه، فليس لنفسه عنده قدر.

قال بعضهم: ما أكرم العباد أنفسهم بمثل طاعة الله، ولا أهانوها بمثل معاصي الله عَزَّوَجَلَّ فمن ارتكب المحارم فقد أهان نفسه.

وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال يا رسول الله مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال « **قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه** ». قال : « **قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك** » [٢].

فقد تضمن هذا الحديث الاستعاذة من الشر كله وأسبابه ، فالشر يصدر من الشيطان وأما من النفس ، ولذلك قال « **من شر نفسي وشر الشيطان وشِركه** » وشركه بكسر الشين وسكون الراء على الإشراك ، أي: ما يدعو إليه ويوسوس به من الإشراك بالله ، وبالفتح حليه ومكائده، ثم قال عن أسباب الشر:« **وأن أقترف على نفسي سوءًا ، أو أجره إلى مسلم**» هذا الشر لنفس العامل: « **أو أجره إلى مسلم**» هذا الشر للغير من المسلمين.

---

(١) تفسير ابن رجب ج١(٨٧).
(٢) سُنن أبي داود برقم (٥٠٦٧) وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**» (١).

عن حصين بن عبيد وهو والد عمران بن حصين أنه: أتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ، عبد المطلب خير لقومك منك، كان يطعمهم بالكبد والسنام، وأنت تنحرهم، قال: فقال ما شاء الله، فلما أراد أن ينصرف قال: ما أقول؟ قال: « قل: اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على رشد أمري، فانطلق ولم يكن أسلم، ثم إنه أسلم فقال: يا رسول الله، إني كنت أتيتك فقلت: علمني، قلت: « **قل: اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على رشد أمري**» فما أقول الآن حين أسلمت؟ قال: « **قل: اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على رشد أمري، اللهم اغفر لي ما أسررت وما أعلنت، وما أخطأت وما عمدت، وما علمت وما جهلت** » (٢).

وفي الصحيحين (٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يقول كان من دعاء النبي ﷺ : «**اللهم اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، ومن بين يدي نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعل في نفسي نورا، وأعظم لي نورًا**».

---

(١) مسلم برقم (٢٧٢٢) .
(٢) النسائي في عمل اليوم والليلة ص(٥٤٧) وصححه شيخنا العلامة الوادعي في الصحيح المُسند برقم (٣١٠).
(٣) البخاري برقم (٣٦١٦) ومسلم برقم (٧٦٣).

وهكذا كان نبينا ﷺ يستعيذ بالله من شر النفس عمومًا ، ومن شر ما يتولد منها من الأعمال ، فكان يقول في خطبة الحاجة إذا خطب الناس: « **إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا** ...». الحديث.

وهذا الحديث هو خطبة الحاجة قد جاء عن عدة من الصحابة منهم ، عبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن عباس ، وجابر ابن عبد الله ، وعائشة وغيرهم [١] .

ألا فيا عباد الله ، اتقوا الله جَلَّوَعَلَا ، واسعوا في إصلاح هذه النفس ، وكفها عن الشهوات المحرمة.

قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:كفى بالمرء سرفًا أن يأكل كل ما اشتهى.

والنفس إن أعطيتها مناها فاغرة نحو هواها فاها

وصدق من قال :

إني ابتليت بأربع ما سلطوا إلا لشدة شقوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف النجاة وكلهم أعدائي

وعن عثمان بن أبي العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم اغفر لي ذنبي خطئي وعمدي، اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وأعوذ بك من شر نفسي**» [٢] .

---

(١) الترمذي برقم (١١٠٥) وأبو داود برقم (٢١١٨) وابن ماجه برقم (١٨٩٢).
(٢) أحمد برقم (١٦٢٦٩) وصححه شيخنا العلامة الوادعي رَحِمَهُٱللَّهُ في الصحيح المُسند برقم (٩٠٥).

ولهذا - أيها الأخوة- شبه الله عالم السوء الذي لم ينتفع بعلمه بالكلب فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾(الأعراف: ١٧٥ -١٧٧).

وفي المثل المضروب أن الكلب قال لأسد: يا سيد السباع، غير اسمي، فإنه قبيح فقال له: أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم، قال فجربني، فأعطاه شقة لحم وقال له: احفظ لي هذه إلى غد وأنا أغير اسمك، فجاع وجعل ينظر إلى اللحم ويصبر، فلما غلبته نفسه قال: وأي شيء أعمل باسمي وما كلب إلا اسم حسن فأكل[1].

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم اعصمنا من شر الفتن، وعافنا في الدارين من جميع المحن، وأصلح منا ما ظهر وما بطن، وألحقنا بالصالحين وارحم المسلمين كافة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) تفسير ابن رجب ج١(٨٧).